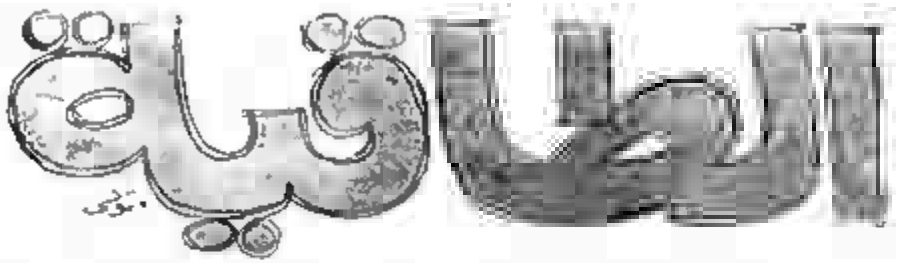

الطاقية

بقلم : محمود تيمور

عند ما استفقت من غفوة القيلولة ، لم أجد من نفسي رغبة في مبارحة الدار . فقد كان عملي صباح اليوم في الوزارة شاقاً أجهدني ، فآثرت الاعتكاف في مسكني ، أنشد الراحة والجمام .

وكنت أحتفظ بصندوق أطلقت عليه اسم « صندوق الذكريات » ، جمعت فيه أشتاتاً من الصور والتذكارات من مخلفات الماضي ، أحتفي بها وأعتز .

وطاب لي أن أقصد إلى الصندوق ، وأن أقلب في محتوياته ، وتعلقت نظرتي أمامنا بلفيفة لطيفة ناعمة الملمس ، معقودة بشريط من حرير ، فتناولتها بين يدي أميط عنها الستار ، ثم ألفيتني أحل الشريط من حولها ، وأبسط مطاويها ، فإذا هو « طاقية » ... طاقية غلام ، يشهد مظهرها الساذج وما فيها من وشي زاهي الألوان بأنها صناعة ريفية الطابع ، لعصر سلف .

وأبهجني مرأى « الطاقية » ، فانتحيت بها ركناً في الحجرة ، أتفحصها ملياً ، وأنشر ذكرياتي معها من طوايا الزمن البعيد .

وتواردت المشاهد على مخيلتي ...

ورأيتني أمام « ستوتة » ... « ستوتة » الصغيرة ، وهي تمد يدها على استحياء بتلك « الطاقية » ، هدية تتودد بها إليّ في يوم الرحيل . وما لبثت أن مالت على أذني تقول : إنها ابتاعتها من « سوق الأربعاء » وأدت ثمنها مما اقتصدته من نقودها الخاصة .

وفي حيرة وارتباك ، تلقيت منها « الطاقية » . وما أذكر أشكرت لها صنيعها بي ، أم ظللت أمامها أعبث « بالطاقية » دون أن أبس بقول .

كنت صبياً أدنو من العاشرة ، على حين كانت « ستوتة » تصغرني بنحو عامين ، وقد مكثت في صحبتها في قرية « السلامية » شهراً ما كان أطيبه وأحلاه ، حيث جمعتنا دار أبيها « الحاج أبو صالح » ، وهو رجل من أواسط القوم ، ميسور الحال ، يحيا حياة الريفي الأصيل ، وبينه وبين أبي أواصر ود . وكان الربيع يومئذ قد أوشك أن ينصرم ، وأنا أعاني هزالاً ينذر بسوء المصير ، فاستجاب أبي لمشورة الطبيب أن يبعث بي إلى الريف ، لأنعم فيه بجو طلق ، ومنظر بهيج ، وغذاء طيب مريء .

ولم يتخل عني أبي في هذه السفرة ، فركبنا القطار إلى محطة « السلامية » ، وبلغناها ساعة الأصيل ، فألفينا « الحاج أبو صالح » ينتظر قدومنا ، وقد أعد لنا ركائب من الحمير يحرسها نفر من الغلمان ، وسرعان ما امتطيت ركوبتي ،

... وسرنا في طريق ترب ، تحف به حقول شاسعة على مد البصر ، والهواء رخي عبق برائحة الزروع .

ولم يطل بنا المسير اكثر من نصف ساعة ، باستقبلتنا قرية « اسلامية » ذات الدور المتخاصمة ، والحميرات الضيقة ، وذلك الجدول الضيق تتهادى على صفحته وعلى حافاته اسراب من الاوز والبط .

ثم جاز موكبنا بدرب ملتو حافل بكومات التراب وبرك الماء ، والاطفال امساك عراة يتواثبون هنا وهنالك متضاحكين .

واخيرا اومينا على الدار ، مكان احتفاء الأهل بنا بالغا الغاية ، وحلت الاريحية لربعيه فيما اعدوه لنا من حلوى ، وفيما حفونا به من طعام وشراب .

وفي ضحوة غد راقل ابي القرية لبعد ان تركني ودعه عند « الحاج ابو صالح » واهل بيته ، فاحسست تهيبا ووحشة ، وجلست وحيدا على دكة بجوار باب الدار ارقب السابلة .

وما هي الا ان شعرت بيد تربت كتفي ، يد « ستوتة » ابنة « الحاج ابو صالح » ، وكنت قد رايتها البارحة ، وقضيت معها قليلا من الوقت نتعارف وهي صبية سمراء ، بشرتها في لون النحاس المصقول ، وعينها خضراء صافية تماثل لون البرسيم في اماله .

قالت لي « ستوتة » ويدها على كتفي ، والابتسامة تسطع على محياها :
تعال نلعب .

وامسكت بذراعي ، فنهضت معها ، وخطونا في الدروب الترية الملتوية ، فسالتها :
— الى اين نذهب
— الى الجرن .
— الجرن ؟
— نعم ... الجرن ... الا تعرفه ؟

وامضينا ساعة في الجرن ، راكبين النوارج مع الفلاحين ، ندرس القمح ، ونعلو صائحا على خوار الثيران ، نحثها على استكمال دوراتها المألوفة .

ولم نكتف بهذا كله ، فتركنا الجرن الى ارجاء القرية ، نتسلق الجميز الهرم المحمد السيقان ، وطمعا من ثماره المعسولة . وغاصت اقدامنا في ماء الترعه الضحل ، ثم جلنا على حافة الترعه نصطاد صغار السمك ، ونلقي به الى الكلاب الحائمة ، ثم اجتمعنا مع الرفاق نلعب « السيجة » ، وانطلقنا في الحقول نجمع اعواد « البرسيم » ، واخيرا قصدنا الى « الزاوية » وتطلعنا الى « الكتاب » المهدم بجوارها ، وقد التفت فيه حلقة الغلمان يقرؤون ويكتبون . وهكذا قضيت النهار مع « ستوتة » مرحا نشيطا ، نغر عيني بمشاهد طريفة .

كانت تتحاشى هبة عارمة الطاحت بتهيبي ووحشتي ، فلم يكد الليل يقبل حتى صرت و « ستوتة » الصبي متلازمين ... ولما ازف موعد النوم اعتلينا معا سطح الفرن ، فقد كان هو المرقد المفضل في الدار ، بل في كل دار ريفية ، وتمددت « الحاجة ام صالح » بيننا كما كان الحسالم الماضي يفصل في النوم بين « الشاطر حسن » و « ست الحسن والجمال » في اساطير الاولين .

ما اعذب تلك الليالي التي نمت فيها فوق سطح الفرن ، قريبا من «ستوتة» ، كل الدعاء الذي سمعت معه يشيع في

اوصالي ، فبعثت فيها خدرا لذيذا يثير في نفسي غرائب احاسيس .

وطـالعت لي في تلك الفترة حياة الطلاقة والمراح ، حياة الفطرة بين قوم لايعرفون تكاليف المدنية وأوضاعها الخانقة ، و « ستوته » الصغيرة رافقتني في مغامراتنا اليومية ، لها في كل يوم كشف جديد ، او لعبة لم يسبق لي بها عهد .

وشاء رب الدار ان يزيد في الحفاوة بي ، فأقام في امسية رائقة حفل سمر ، تميز بطابعه الريفي الأصيل .

واحتوانا فناء الدار ، فتحلقنا ... والمشاهد تتوالى أمام عيوننا ، مشاهد بعربطة المداحة ، نستقبلها بفرحة غامرة ، لاتكل ايدينا من التصفيق ، ولا تفتر حناجرنا من الصياح .

وما زلت اذكر شخصية المهرج ، وقد طلا وجهه بالدقيق ، وامتطى جريدة طويلة كان يدعوها الفرس الطهم ، وشخصية الزمار الذي يطلق انغامه ، وحصره يتلوى ، وراسه يتطوح ، فيدور زر طرطوره الطويل دورات سراعا على ايقاع الزمار . وهناك الطبال بكرشه المنتفخة ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، منشدا مع المردد من السمة ، نشيده الموحد ، يعيده بين الفينة والفينة .

« ان لاقاكم حبيبي
سلموا لي عليه »

وفي ختام العرض اجتمع المدعوون في الحلقة ، واشتركوا في رقصة مالحة ، وفرغ الطبل يدوي كأنه عزيف الجن ، فسرت في اوصالي حماسة ، واخذت بيد « ستوته » ودفعت بها الى الحلبة ، وجعلنا نسهم مع اللاعبين في الرقص والتهريج .

ولما انفض العرض ، دعاني رب الدار

الى ـــــــساط ريفي طــريف ، مدة في العشاء .. كان الحصير مبسوطا على الارض ، وعليه رصت صحاف الثريد وقصاع المشدة ، وصــــواني الفطير والرحـــراح ، وما الى ذلك من مآكل فلاحية شعبية . مجلسنا متربعين ، وبيننا فرقة اللاعبين ، وجعلنا نصيب طعامنا الشهي في شــغف ، وحلا لنا السمر من بعد الى هزيع من الليل .

***

وعدت الى « الطاقية » اقلبهـــا بين يدي ، وظل ابتسامة يتحــــايل على وجهي . لقد بقيت قابعة في« صندوق الذكــريات » نيفا وثلاثين عاما ، منذ كانت زيارتي لقرية « السلامية » ، تلك الزيارة التي كانت الأولى والأخيرة .

وكرت الأيام ...

كرت تبدل من مظاهر الحياة ماتبدل، وافنا الزمن ، ومرت بنا احداث تباعــد بيننا وبين مواطن الذكريات ، وتنســج عليها خيوط النسيان . ولكن هل الى استعادة الماضي من سبيل ، أو بالاحرى الا من وسيلة نخادع بها انفســـنا ، نحاول أن نحيا بين صور ذلك الماضي الحبيب على اي وجه يكون ؟

ومن اعماق نفسي ثار بي حنين متضرم الى رؤية قرية « السلامية » وما ضمت من اماكن ومشاهد وناس .

وما هي الا ان رف امام عيني طيف « ستوتة » مشرقة في جلبابها الاحمر المصماص ، زاهية بعصــــابتها ذات الهداب المفهفهة، وهي تلوح لي بذراعها تدعوني أن اقبل عليها .

وعلى الفور تجلت لي صفحات من ايامي الحاضرة كئيبة راكدة ، وخيل الي اني لست أكثر من دابة مكدودة تنوء محملها الثقيل ، وضربات العصا تلهب ظهرها في غير اشفاق .

وانتفضت بين جوانحي ثورة ســخط على حياتي التي اكابدها ، بل على الحياة نفسها من حولي ... اليس من حقي أن التمس التحرر من اغلال صعاب يكبلني بها العيش في المدينة ؟ أما أن لي أن استمتع بعض وقت بعيشة البداوة في بساطة وسذاجة ، نائيا عن مشكلات العقل والتدبير والحساب متفيئا ظــلال الغفلة والسكينة والاستخفاف ؟

لم لا اهرب الى الريف ، اقضي فيه بضعة ايام ؟

لم لا امر الى « السلامية » ، القرية الحبيبة ، اتذوق فيهـــا حلاوة الماضي الرخي ؟

لا اذهب غدا الى مقـــر عملي ، سأتخذ طريقي الى دار « الحـــاج ابو صالح » ، الى « السلامية » .

ذلك مابيت عليه عزمي .

وفي اصيل غدي ، كنت ارافق القطار، ومعي حقيبتي الصغيرة تحوى قليلا من المتاع ، وشكولا من الهدايا ، وتحسست جيبي ، فالفيت « الطاقية » في مكانها الذي اثبته عليها ، وشخصت عيني الى مبنى المحطة ، اتامله وانا اراجــع نفسي : اتراني اخطأت القصد ؟ اهذي محطة « السلامية » حقا ؟ ان صـــورتها في ذاكــــرتي تمثل بناء اغبر متداعيا لاتنسيق فيه ، اما ما اشهده الســــاعة فهو مبنى ناصع البياض ، عصـــــري الهندسة ، وكنت الحق بالقطار ، لولا ان احـــدت عيني لافتة اقيمت على الرصيف ، تهتف بالزوار :

مرحبا بكم في « الســلامية » ؟

ولاحت في خاطري لافتات على هـــذا النحو ، تواجه زوار المطارات بمداخل العواصم والمدن الكبرى .

وقفت امام لافتة « الســلامية » اتاملها

عليا ، وقد سحت على مي ابتسامة غامضة .

ودمت خطاي لاجتاز المحطة .

والقيت ببصري حوالي ، افتقد مربط الحمير . . . فلم ار الا سيارة عامة يهرول اليها الناس متقافزين متزاحمين بالمناكب .

ومر على مقربة مني شاب ريفي ، ممسوط القامة ، متألق النظر ، فاستوقفته اقول :

— اين مربط الحمير ، ولا تؤاخذني ياحضرة ؟

فاجابني مبتسما :

— ليس هنا مربط للحمير او للبغال . . . ولا تؤاخذني يا استاذ !

— اريد ان اذهب الى قرية « السلامية » . . .

— تستطيع ان تذهب اليها راكبا السيارة العامة ، وهناك سيارات خاصة تحملك اليها ان رغبت ، فانتظر احداها هنا حيث انت . . .

— لم احضر لاركب سيارات عامة او خاصة . . . انا شبعان منها . . . اريد ان امتطي حمارا . . . اريد ان استمتع بركوب الحمير . . .

فتبسمت ابتسامة الفتى ، وقال :

— ليس للحمير المأجورة هنا وجود . . .

— امر عجيب . . . هل افقر الريف من الحمير ياحضرة ؟

— لم تعد تتخذ وسيلة للانتقال ، فقد حلت محلها السيارات .

وتركني وهو يتضاحك ، ووقفت حيران هنيهة . . .

واخيرا مر بي فلاح مرهو على ظهر دابته ، ومن حسن حظي ان الدابة كانت من جنس الحمير . . . فاشرت اليه استوقفه ، وما ان دنوت منه حتى قلت :

— اريد الوصول الى قرية « السلامية » . . . كم تطلب من اجر على المشوار ؟

فرمقني بطرف عينه ، وهو ممتطٍ حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

— انا لا اؤجر حماري للركوب . . . يا افندم !

وهم ان يتابع سيره ، فامسكت به اقول :

— ساعطيك اجرة سخية ترضى بها . . .

ولم اتوان من اخراج قطعة فضية كبيرة ، وانا اواصل الحديث :

— هاكها . . .

فرمق الرجل القطعة في يدي ، فحملقت ، ثم مد يده قائلا :

— هاتها . . .

ونزل عن الدابة ، فما اسرع ان امتطيتها .

وسار بي الحمار الهوينى ، وصاحبه يتبعه في تخطر ، كأنما هو في نزهة ، وكان ضنينا بالكلام ، على مخيلة خيلاء . فاخليته لشأنه ، وجعلت اسرح الطرف حوالي في الحقول المترامية ، واستنشق هواء الاصيل المشبع برائحة الزروع . بيد ان السيارات عامة وخاصة ، كانت تجور بنا كالزوابع الهوج ، فملأ الجو غبرة ، وتصم الآذان بما لها من صفير ازعج ، وصيحة شنعاء .

وواصلنا سيرنا الهيني ، وقد اخذت الشمس تنحدر للمغيب ، وتبدى لي قرصها المتوهج من بين النخيل يبعث الينا تحية المساء .

وتراءت لي مجموعة من الدور الريفية على طراز عصري مستحدث ، استرعت انتباهي بجمال نسقها ، وطرافة هندستها ، فملت ببصري الى رفيقي الصامت المتخطر اسأله :

ـ ما سم عده أمريه .

فاجابني وهو يرمي بصره امامه في غير مبالاة :

ـ انها « السلامية » ... القرية التي تسميها .

فصحت قائلا :

ـ أواثق انت ؟

فحدجني بنظرة جانبية ، وقال :

ـ انا من سكان القمة يا افندم ...

ـ ولكن ... ياحسرة ...

والتفته ياخذ برمام الحمار بفمه ، وقال في نبرة حاسمة :

ـ فصل ... انزل ... لقد وصلنا ...

ونزلت عن الدابة ، وفي يدي حقيبتي ، وقلت مهمهما :

ـ لم تكن القرية على هذا المظهر فيما مضى ...

فقال وقد ركب دابته :

ـ الدنيا تغيرت يا افندم ...

ولكز خاصرة الدابة ، فانطلقت به تعدو ...

وبقيت وحيدا على حافة الطريق ، انوسم القرية في اعجاب لا يخلو من وحشة . لقد احسست على الرغم مني بشعور ضياع ، وكأنني قد ضللت السبيل .

ومر بي شخص عارى الراس ، يبدو من ملابسه الحضرية انه من اهل المدن ، ولاحظ على الفور انى غريب شبه تائه ، فدنا مني يقول :

ـ اتبحث عن شيء ما سيد ؟

ـ ابحث عن قرية « السلامية » ...

فقال مطمئنا :

ـ انها امامك .

ـ اتكون قد تغيرت ملامحها الى هذا الحد ؟ أكاد انكرها

[illegible]

القرية القديمه ، وانشئت عن كثب منها قرية جديدة عمرها عام واحد ... انها قريه نموذجية ... تجربه فريدة من تجارب العصر الحاضر .

فاخذت بالصمت أفكر ، ثم استعدت امثاله :

ـ وأهلها ... سكانها الاصليون ؟

ـ انهم فيها دون شك .

فاجزلت له الشكر ، محييا اياه ، فودعني ومضى لطيته .

وظللت انا في مكاني لا ابرحه ، وكانت طلائع العشية قد احتلت أرجاء الافق تزيدني شعورا بالوحشة والاغتراب .

وهاجت بي الخواطر والذكريات .

مالي وللقرية النموذجية بحسن تخطيطها وتنسيقها وما تحويه من مظاهر حضرية الاقه ؟

لقد جئت لاجتلي معالم القريه القديمه كما هي ببساطتها وسذاجتها وجمالها الطبيعي ، لابرقشة ولا زخرف .

كلا ... لن يكون لي في هذا هذا البلد مقام ... ساعود على الفور الى « القاهرة » .

واعتزمت ان اركب اول سيارة قادمه تنقلني الى المحطة .

وبينما انا في وقفتي اترقب ، اذ سطعت الانوار بغتة ، فبدد غاشية الظلمة ، وادهشني انها انوار كهربيه ، واستغرقت عيني على القرية ، فاذا هي تسبح في اضواء ... واستمالت لي زمر من الناس يتوافدون عليها ، وهم يتصايحون ويتضاحكون . ولم يمض طويل وقت حتى اشتدت زحمة الوافدين وتعالت منهم ضجة .

وما هي الا ان تجاوبت انحاء الفضاء بصوت جهوري ينبعث من « مجهار »

يعني بتول ممانعة . لبست وصحت الثمرات ، ففهمت منها أنها برنامج لحفل معدونه ، وملت على شيخ في حلة مهندمة ، يسير صوب القرية ، فقلت له

— أيحتفلون بليلة عرس في « السلامية » ؟

متصايحت بحسب :

— نعم ، وانها لليلة عرسها . . .

عرس القرية نفسها !

— عرس القرية ؟

— في مثل هذا اليوم من عام مضى ، دشن المحافظ القرية الجديدة ، وفتح ابوابها لمن يعمرونها . اننا نحتفل الليلة بعيد ميلادها الاول .

— أنت من سكانها ؟

— اني طالب في معهدها الزراعي .

ففهمت أردد :

— معهدها الزراعي ؟

وتراءت في مخيلتي على الفور صورة لم انسها لطرافتها ؛ صورة « كتاب القرية » في العهد السالف ، وكان هو المعهد الوحيد الذي يتلقى فيه الصبية كل ما يتلقونه من تعلم . . مبادىء القراءة والكتابة ، ولطالما طرقته مع « سنوته » في جولاتنا اليومية ، فاذا هو حيطان من اللبن متصدعة يصل بينها سقف من فروع الاشجار العتيقة ، وفي صدره تقبع حطمة السنون ، فوق دكة خشبية ، ومن حواليه تنبعث اصوات الاطفال مربعين على الارض ، وهو يتعهدهم بالدرس والتلقين ، وبين الحين والحين يلوح لهم في يده اليسرى بعصا من جريد ، اما يده اليمنى ففي في ذهاب وأوبة بين فمه وصحفة الطعام ، وعيون تلامذته محملقة فيه بنظرات جائعة مهمومة ، وآذانهم غافلة عن سماع ما يقول .

وسمعي صوت الخشاب الرأس يقول :

— لا تؤاخذني ، اني ذاهب الى الحفلة . . .

فهززت يده هزة الشكر .

وتوالى الناس فرادى وجماعات الى « السلامية » ، واسترسل « المجهار » يواصل اذاعته في حماس شديد ، وازدادت الاضواء من سطوع ، وارتفعت انغام الموسيقى تملأ النفس من بهجة وايناس .

وحملتني التي لما حولي سمعي وبالي . . .

ووجدت قدمي تساق بي نحو مدخل القرية ، وجرفني التيار يطويني في جوفه ، واذا انا في ساحة قد أعدت على غرار ساحات الملاعب الشعبية « السيرك » : حلقة فسيحة نصبت فيها آلات ومعدات ، ورصت حولها المقاعد ، وقد اخذ الجمهور يشغلها .

سرت كالتائه يدفع بي الناس يمنة ويسرة . وقد اختلط على الامر ، فلم اعد أدري ما انا فاعل ؟! ابحث عن مقعد استريح بالجلوس عليه ، واشهد بعينه احتفال الليل ، أم أعود ادراجي الى « القاهرة » ؟ وانتهى بي المطاف الى احد الابواب ، ورأيتني امام شخص يرتدي حلة شبيهة بحلة الكشافة ، يلف على ذراعه شريطا أبيض عريضا محلى بشارات ملونة ، فما شككت انه من اصحاب النفوذ في الحفل ، فتقدمت اليه احييه ، فرد تحيتي في أدب ، فقلت له :

— انا غريب عن القرية ، قدمت عليها ازور بعض المعارف ، فهل لي أن اعلم اين مسكن اسرة « الحاج ابو صالح » ؟

— لن تجد الليلة احدا في داره . اهل القرية اما في النظارة يتفرجون ، واما في جوقة الممثلين يتأهبون للتمثيل .

— الا تستطيع ان تعينني على ان التقي واحدا من تلك الاسرة ؟

— من العسير عليك ان تجد ضالتك بين المتفرجين ، وهم حشد كما ترى كبير وقد يسعفك الحظ اذا بحثت هنا بين جماعة الفنانين . . تفضل . . . ادخل . . . ادخل . . .

وفسح لي ، فدخلت . . . وواجهني على الفور فرح ومرح ، زمر من الفتيان والفتيات في غدو ورواح ، يتصايحون ويتضاحكون ، وهم رافلون في ثياب زاهية مبهجة ، مختلفة الشكول والالوان .

فتنحيت ركنا اشهد منه ما يدور حولي ، ويبدو حقيبتي الصغيرة ، تدل على انى زائر غريب . وكلما جاز بي شخص ، حاولت ان استوقفه ، ولكن ضاعت محاولاتي سدى ، فلم يعرني احد بعض التفات ، واحسب انهم ظنوا انى من عمال المسرح ، او من مساعدي التصوير والاخراج . . .

ونالني ضيق ، وهممت ان ابارح المكان ، فاذا عيني تتصيد على حين بغتة وجها اسمر من لون النحاس المصقول ، بعينين خضراوين تتلالآن في مسقطهما لون البرسيم في ابانه .

وانطلقت من حلقي صيحة .

— « ستوته » !

والتفتت نحوي صاحبة الوجه النحاسي والعينين الخضراوين ، فهرعت اليها مهتاجا ، وسمعتها تقول مشدوهة :

— من تريد ؟

فاجبت راعش الصوت :

— اريد « ستوتة » . . . « ستوتة » . . .

فقالت في صوت هادئ :

— لست « ستوته » . . .

— من تكونين اذن ؟

— اسمي « ميمي » . . .

— و « ستوته » بنت « الحاج ابو صالح » ؟

فحملقت الي بعينيها تحاول استبطان افكاري ، ثم قالت في بساطة :

— لعلك تعني امي !

— هل انت ابنة « ستوتة » . . . ؟ هل جدك هو « الحاج ابو صالح » ؟

— نعم . . .

فقلت ، وانا اعالج ان املك مشاعري ، واستعيد هدوئي :

— حقا لا يمكن ان يكون الامر غير ذاك . . . معذرة !

— الا تفصح عما تريد ؟

— جئت الى « السلامية » لازور الاسرة ، فقد نعمت بضيافتها شهرا كاملا بعد . . . بعد . . .

واعتصرت جبهتي اعد السنين ، ثم ابتسمت اكمل قولي :

— منذ ثلاثين عاما او اكثر . . .

فتضاحكت « ميمي » تردد :

اكثر من ثلاثين عاما . . .

— هذا هو الواقع . . . والآن وقد عثرت عليك ، الا ترشديني الى دار الاسرة ازورها واجدد العهد معها ؟

— اذهب معك بكل سرور . . . انتظر حتى ينتهي الحفل . . . سأشترك في مشاهد العرض .

— وهل القى في الدار « ستوتة » و « الحاج ابو صالح » ؟

فنكست رأسها تقول :

— كلا ، لقد ذهبا الى رحمة الله !

ومرت برهة ، وكلانا صامت خاشع البصر .

ثم سموت برأسي اليها اقول :

— والفرن . . . الا استطيع ان القي المتى عليه ؟ . . . لا انسى الليالي الماضية التي قضيتها نائما فوقه . . .

متهلل على وجهها طيف ابتسام ، وقالت :

لا احد الآن في الدار ... بل ليس في دور القرية الجديدة فرن واحد ؟

متساءلت دهشا .

— وكيف تحصلون على خبزكم اذن ؟

فاتسعت ابتسامتها ، وقالت

— من مخبز الجمعية التعاونية

— امر عجيب !

— بل امر طبيعي ...

وانسرحت بي الافكار لحظات اهيم في آفاق الماضي ، مستعيدا صوره وأطيافه ، ثم اسمعتها أقص على «سمعى» ما أعرفه عن « السلامية » في عهدها الغابر وما كان فيها من اوضاع العيش ومرافق الحياة .

وامضت في الحديث مشبوب العاطفة ، راويا لها كيف كانت امها « سعدونة » رائدتي في جولاتنا اللاهية العابثة ، وكيف كنت سعيدا برفادتها .

وما أتممت حديثي حتى اسرعت تقول .

— اخشى أن تكون زيارتك اليوم « للسلامية » لاتحقق ما هدفت اليه

فنظرت اليها ، مطالعتني عيناها الحضراوان ، وقد تألقت فيهما حيوية دافقة . فقلت على استحياء :

— كيف يكون ذلك وقد سعدت بمرآك ؟

فاخذت مسترسلة في حديث حماسي ، تصف القرية في عهدها الجديد وما شاع فيها من أسباب الرخاء والرفاهية ، وما شمل اهلها من تطور اجتماعي . وكنت انصت لها كل الانصات ، وانا مأخوذ بنغمة صوتها الساحر .

واخيرا قالت :

— لقد كانت امي رائدتك فيما سلف ، فهلا رضيت بي اليوم رائدة لك ، اجول معك في القرية الجديدة ، اريك معالمها ؟

فاجبت في اقبال .

— ليس احب الي من ذلك

ورمق « المجهار » في تلك اللحظة ، يعلن ان بدء الحفل وشيك . وان على كل امرىء ان يأخذ مجلسه ، فقلت .

— حان الوقت لابحث عن مكان لي وسط هذا الزحام ...

فاسرعت تقول .

— ان مكانك بجواري ... ستلازمني طول الوقت ... لقد بدأت ريادتي لك بعد اللحظة ...

— كيف يكون ذلك ، وانت من فرقة الفتيات الذين يشتركون في العرض ؟

— اطمئن ... هذا لايغير من الامر شيئا ... اعلم ان لكل فتاة حق اختيار زميلها في مشاهد العرض ... وقد اخترتك ... انتظرني هنا ساعود بعد قليل ...

واختفت في الحقيبة وهي تقول :

— ساحفظها لك في مستودع الملابس حتى ينتهي الحفل .

فتركتها تفعل ، وقد انعقد لساني ، وملكتني حيرة .

ولم تطل غيبة « سمى » فعادت وفي يدها لفيفة ، سرعان ما بسطتها امامي ، فاذا هي « زعبوط » من المبتكرات الحديثة ، مخطط بالوان زاهية . وما عتمت ان طرحته على منكبي ، وطفقت تسويه على جسدي . ثم بعثت تكركر في الضحك ، وهي تردد :

— فلاح عصري ، طراز ١٩٦٤ !

ثم ناولتني ورقة فيها بعض الاناشيد مطبوعة بالآلة الكاتبة ، وقالت لي :

— ستحفظ امامي هذه الاناشيد ،

[illegible] على [illegible]
رقصات البرنامج .

وشرعت نفرمى ، وكانت استجابتى سريعة ، ولم ألبث أن أحسست نشوة طارئة تسرى بين جوانحى ، وكأننى عدت صبيا فى العاشرة ، استقبل لهو الطفولة وعبثها ، دون رقيب .

والحق أننى لم أعد أفكر الا فى اللحظة التى أحياها مع « ميمى » ، مغفلا عن كل شيء عداها . لا ماضى يثقل على بتقاليده ، ولا مستقبل يرعبنى بأشباحه الغامضة . ليس ثمة الا بهجة تنبعث من طلعة رائقة ، وصفاء يترقرق من لمح عينيها الخضراوين .

ورعق « المجهر » مرة أخرى يعلن بدء العرض ، فعلت أصوات تترنم بالأناشيد وقد صاحبتها الحان جياشة . وأحسست بيد « ميمى » تمسك بساعدى ، وتسير بى ، فأرخيت لها قيادى فى استسلام . . واحتوتنا الحلقة فيمن حوت من فرقة الممثلين ، وكانت الأنوار وهاجة تخطف البصر . واستقلت أجهزة الاذاعة المرئية شحنة منوعة تلتقط الصور والأصوات من شراهة .

ودرت مع « ميمى » نتراقص ونشترك فى الانشاد ، وكانت الأناشيد بمعنى مقربة « السلامية » ونشهد تطورها فى العهد الجديد ، وقد خفت بها أنغام تتسرب فى أعماق النفوس ، فتثير فيها الحمية والنشوة .

فنسيت الوقت ، وأنا شبه ثمل ، أكاد أفقد الوعى لما حولى ، لولا أن هذا الوجه الحلو المصقول بعينيه الخضراوين الصافيتين ، كان يردنى الى اليقظة آنا بعد آن .

وانتهى العرض ، والتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلت الحناجر بالهتاف .

وخمدت الأضواء ، ورعق « المجهر » يعلن الاستراحة ، ويدعو النظارة الى المقصف ، فمضينا اليه ، فاذا موائد مستطيلة ، جميلة التنسيق ، رصصت عليها أفانين من الشطائر والفطائر ، وشكول من الفاكهة والحلوى . فالتففنا حولها ، وأصبنا من طعامها ، فى جو يسوده بشر وايناس .

ومرق امرؤ حاسر الرأس ، أنيق البزة ، على منصة فى صدر القاعة . فدوى التصفيق ، ومالت على « ميمى » تقول :

— انه العمدة . . .

والقى العمدة خطبة عامرة ، أجمل فيها ما أحرزته القرية خلال عام من تقدم ونماء ، فلقيت خطبته ترحيبا وحفاوة .

وانفض الجمع .

وهمست « ميمى » تقول :

— والآن ألا ترغب فى الخروج ، لنشهد النزهة فى جو طلق ؟

— أنا معك ، حيثما أردت .

وأدبرنا عن الملعب ، نتوخى وجهة الطريق . وما لبثنا أن ملنا عنه الى سكة جانبية تسايرها ترعة ، وعن يمينها وشمالها تترامى الحقول . وتناقلنا الحديث فى شأن الحفل وما دار فيه . وكنا كلما أوغلنا فى السير بعدت عنا الضجة ، ورقت الأضواء ، وقل الكلام . . .

وازدادت الحلكة . . .

ولفنا صمت . .

وامتدت يدى الى جيبى ، أنشد منديلى ، فاذا نسيج مطرز يعلق بأصابعى . . . وبدت لى « الطاقية » فى مظهرها الساذج ، هدية « مسعودة » الى يوم الرحيل ، فى الزمن البعيد .

وتحدو ... ... تمضى ...

— مابالها ؟

مرويت لها قصتها ، متناولتها مني تتحصها ، وهي تقول :

— ما أنبل مشاعرك ! أتحتفظ بها طوال هذه السنين ؟

— انها تذكرني بأيام طفولتي الهانئة . .

— أثر تاريخي لطيف .

وردت « الطاقية » الي ؛ وواصلت حديثها :

— مثل هذه « الطاقية » لم يعد له اليوم عندنا كبير شأن !

وتلاحقت الذكريات في خاطري ، وقلت لفتاتي :

— لم تذكري لي كيف قضت أمك ؟ ومتى ؟

— يوم مولدي .

همهمت .

— ما أمرها ذكرى !

وطوانا الصمت ، ثم استأنفت الحديث في نبرة محزونة ، أقول :

أي عندك مطلب .

— ماذا تعني ؟

— أن أزور قبرها ...

— في مستطاعي أن أمضي بك الساعة اليه أن شئت ...

— الآن ؟

— أن مقبرة القرية غير بعيدة ، بيننا وبينها بضع خطوات ...

وأشارت بيدها الى خربة تغمروها الاعشاب اليابسة ، ويغشاها الظلام الوحش ، والسكون الكئيب ، وقالت خافضة الصوت :

— انه المكان الوحيد الذي لم تمتد اليه بعد يد التجديد ...

وسرنا بأقدامنا صوب الخربة ... وقد تمشى في جوانحي قلق غامض .

و ... ...

أسماعنا صوت « المجهار » ينبيء بانتهاء الاستراحة واستئناف البرنامج ، متوقعاً وفاته .

— لم يبق من وقت للزيارة .. فلنعود أدراجنا .

— لايستأنفون العرض على الفور ... هناك فسحة من الوقت ... تتيح لنا أن نزور ...

وتراءت خلفنا أضواء الحفل تسطع وتتوهج ؛ وقويت الضجة في صخب ، وامتلأ الجو بأنغام الموسيقى .

ولبثت لحظات أرجح البصر بين الخربة من أمام والحفل من وراء ؛ بين الظلمة الموحشة والاضواء اللألاءة ؛ بين السكون المطبق والحركة الجياشة . ثم القبضي أمسك بيد صاحبتي وارتد بها نحو القرية ؛ واسمعني صوت « فيفي » يقول

— انتظر ... انتظر قليلا ...

— لم ؟

— شيء سقط منك ...

— ماذا ؟

— انه « الطاقية » ... انظر ...

واشارت الى شيء ابيض ؛ يترنح على حافة الترعة ؛ تداعبه نسمات المساء .

وهبت ريح تحمل « الطاقية » وتلقي بها في الماء .

ورأيتها تطفو بعض وقت ... ثم اختفت رويدا بين تموجات هينة رقاق

وعجبت لأمري كيف أحجم عن انتشال « الطاقية » ؟ ...

لقد عــراني بلد عجيب ؛ فلم ابد حراكا ...

ومات بناظري عن الترعة ؛ أواصل السير ، ويدي في يد صاحبتي ؛ متجهين الى « السلامية » الجديدة التي يغمرها فيض من حيوية ونور !